

إنَّ عبقرية ابن خلدون حسب الجابري، ليست راجعة، في الحقيقة، إلى إبرازه لهذا العامل أو ذاك، بل إنَّها في معالجته لأثر هذه العوامل كلها. في تفاعلها و ديناميتها و إذا كان ابن خلدون لم يعتمد على الديالكتيك كمنهج، فقد فرض عليه الواقع الحي، الواقع الاجتماعي و التاريخي المتطور، ديالكتيكه و جدليته¹. هذا الواقع المتغير بسرعة في ظهور و أفول الدول في بلاد المغرب العربي.. و هكذا زواج و مزج بين العصبية والدين والأخلاق، و نظر إلى فاعليتها من خلال تأثيرها المتبادل، كما زواج بين العامل الاقتصادي ممثلاً في شؤون المعاش والعامل الطبيعي في تأثير المناخ والخصب والجذب. و نظر إلى تأثيرهما ككل، ثم ربط بين ذلك كله. بين تأثير العصبية والأخلاق والدين، والطبيعة والاقتصاد في أنظومة واحدة، متداخلة العناصر، متشابكة الأطراف و سمّاها "طبائع العمران"، و هو بذلك لم يقل بحتية جغرافية منفصلة، و لا جبرية دينية قاهرة، و لا بحتية اجتماعية أو اقتصادية معينة، بل مزج بين هذه الحتميات كلها في حتمية واحدة هي الحتمية العمرانية إذا جاز لنا القول².

إنَّ التغير الاجتماعي والتطور التاريخي يرتبطان حسب ابن خلدون أشد الارتباط بعملية الانتقال من البداوة إلى الحضارة، و هذا التغير لا يتم وفق وتيرة طبيعية متدرجة و عبر مراحل، بل إنَّه تطور يحصل عبر نوع من الطفرة، فمن الناحية السياسية؛ تمتاز الدول التي ينشأ البدو الرحل باتساع الرقعة من جهة، و سرعة الزوال من جهة أخرى. فأما اتساع الرقعة، فيرجع إلى أنَّ الأمم البدوية يكون ملكها أوسع للميزات الخلقية التي يتصفون بها، و لعدم استقرار البدو و ارتباطهم بالأرض، مما يلغي من أذهانهم فكرة الوطن والمواطنة، الذي تشكل الأرض أحد مقوماته. و من جهة ثانية يؤدي اتساع الرقعة إلى إضعاف الدولة بسبب توزع أفراد العصبية في الأمصار، يدفع بالبعض إلى الاستقلال عن الدولة الأم و ظهور عصبيات خاصة مناوئة لها.

و من الناحية الاجتماعية، فإنَّ سمة الترحال و طرق الكسب التي تميز أهل البدو، و بالأخص من يشكلون العصبية الغالبة التي تعتمد على الكسب من الإمارة، والتي لا تسمح لهم بالاندماج الكلي في سكان المناطق التي يحتلونها أو يقيمون فيها دولتهم، و يكونون فيها بمثابة الأجانب رغم تملكهم لها، فكل همهم هو تحصيل المال المفيد للجاه و السلطان، و من العجيب يقول الجابري، أن تكون الأخلاق التي

¹ - الجابري، فكر الدولة و العصبية، ص 400

² - نفس المرجع، نفس الصفحة

كانت سببا في تأسيس و قيام دولتهم هي نفسها أخلاق منافية للعرمان، ذلك أنّ ابن خلدون يعزو إلى خلق البداوة جميع نقاط الضعف في دولة العرب و حضارتهم¹.

لكن و بالرغم من أنّ خلق البداوة له مساوئه، والتي تتجلى في لحظات احتكاك البدوي بالحضارة، فإنّ تلك المساوئ و قبل ذلك التماس، كانت مزايا ذات بعد إيجابي و صفات لا بد منها لتحقيق المدافعة و المطالبة في لحظة تاريخية معينة، ضمن مسار تأسيس الكيان السياسي. الكيان الذي يركز على خاصية لا نجدها إلاّ عند البدو هي العصبية، و هي بمثابة المحرك الذي يظهر دوره في لحظات حاسمة من حياة القبيلة، في حال تعرضها لأي عدوان أو خطر خارجي، بفضل ما توفره من روابط و علاقات تدفع الفرد و الجماعة على السواء إلى الالتحام والتناصر من أجل دفع ذلك الخطر. و لا يتوقف دور العصبية عند حد المدافعة، بل إنّها تتحول إلى دافع للمطالبة لما في أيدي القبائل الأخرى، من خلال فرض سيطرتها ونفوذها على باقي العصبيات سواء داخل القبيلة نفسها أو على عصابات القبائل الأخرى.

لم يكن للعصبية ذلك التأثير القوي من دون أن تحمل عناصر تمددها بكل تلك القوة. و بما أنّ العصبية كما رأينا هي إنتاج بدوي خالص، لا بد و أن تحمل خصائص و صفات المجتمع الذي نشأت فيه، و هو مجتمع كما سبق معنا، أقرب إلى الخير لقربه من الفطرة والحالة الطبيعية، و هو أقرب إلى الشجاعة والاكتفاء لما يعاينه أفراده من ظروف المعاش التي تنسم بالتقشف و شظف العيش جعلتهم يقتصرون في حياتهم على ما هو ضروري من أجل الحفاظ على وجودهم، هذا الشكل من الحياة المتوحشة، أمدهم بصلابة في أجسادهم و خشونة في طباعهم، جعلتهم مرهوبين من غيرهم، فهم قادرون على التغلب على من سواهم، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياضهم و ذواتهم، قربت بينهم ظروف العيش المتشابهة، و جعلتهم أكثر لحة و ترابطا بفعل علاقاتهم الاجتماعية القائمة أساسا على صلة الدم و القرابة، و على المشاركة والمساهمة. و هي الأخلاق والصفات التي اعتبرها ابن خلدون من القواعد التي تساهم في التأسيس للسلطة السياسية، و هو ما حاولنا إبرازه في ما تقدم من أفكار من أنّ أخلاق البداوة هي أخلاق مؤسسة للقوة السياسية المتمثلة في العصبية الموصلة للملك و السلطان، و هي أخلاق يمكن وصفها بأنّها أخلاق جماعية تخص مجموعة معينة أو وحدة اجتماعية ممثلة في القبيلة.

و ثمة أخلاق أخرى، تنشأ داخل المجتمع البدوي، تخص أفرادا دون غيرهم، تجعل منهم مركز الحياة داخل القبيلة، و يرجع إليهم في كثير من الأمور الداخلية التي تعني القبيلة، و هو ما يعطيهم نوعا من السلطة و إن كانت معنوية تقوم على أساس من التراضي لا على القهر والغلب في كثير من الأحيان، والتي يمثلها شيخ القبيلة، و قد وجدنا أنّ تلك السلطة قائمة بحسب ابن خلدون على النسب الصريح،

¹ - الجابري، نفس المرجع، ص 410

المرتبطة بالحسب و الشرف والالذان لا يتمان إلا بالخلال والأخلاق الحميدة لأهل بيت زكي المنبت يملك رصيда من الحسب والشرف أو رأسمال معنوي.

إنّ تلك السلطة التي اكتسبها صاحبها بفضل جملة من الأخلاق كانت في أسلافه و أخلاق أخرى دعمها هو بأفعاله و أخلاقه الخاصة، و قد شكل الكرم و السخاء و كذا الإنفاق أساس تلك الأخلاق، والتي تجعل ممن يقع عليه فعل الكرم و السخاء يقر بالفضل ويدعن لسلطة صاحب الكرم من باب "إذا أكرمت الكريم ملكته"، و في التاريخ العربي شواهد كثيرة ممن أهلتهم أخلاقهم لأن يكونوا سادة في أقوامهم، و هم لم يكونوا ليتوقفوا عن التحلي بتلك الأخلاق مخافة أن تزول سلطتهم تلك، لذا كان عليهم أن تكون تلك الأخلاق صفة ملازمة لهم، عكس ما يحدث في أيامنا هذه. حيث أصبحت تلك الأخلاق آنية و مصطنعة لفترة محدودة تسبق أي استحقاق سياسي من أجل الظفر بأي نوع من السلطة السياسية محلية كانت أو وطنية. فوجد أولئك الساعين إلى تقلد المناصب ينفقون بسخاء يفوق في بعض الأحيان الكرم الحائمي من خلال مشاركة الناس أفرانهم و أحزانهم. كل ذلك قبل الاستحقاق، غير أنّ ذلك سرعان ما ينقلب إلى الضد، بل إنهم يسعون إلى استرجاع كلّ دينار صرفوه أو أنفقوه بعد تحصيل ثمرات السلطة الجديدة.

لا يتوقف المفعول الذي تمارسه أخلاق البداوة في الحياة السياسية، حتى بعد أن تتمكن العصبية من التغلب والظفر بالملك، و إعلان حكمها و ملكها على الأقل في المراحل الأولى من عمر الدولة الجديدة. و هو الأمر الذي يبقيا مرهوبة الجانب من قبل العصبيات التي خضعت لها بالولاء والحلف أو بالقهر والمغالبة، و تبقى كذلك طالما حافظت على صفات و أخلاق البداوة، و في مقدمتها أخلاق المساهمة والمشاركة. و كما أنّ دوام الحال من المحال كما يقال، و هو ما تفضن إليه ابن خلدون بأنّ التطور حاصل لا محالة بفعل تطور ظروف الحياة المادية، و ما تتطلبه العوائد الجديدة التي لبسها أهل العصبية الحاكمة، خصوصا تلك المتعلقة بالترف والبذخ و الحاجات المتجددة التي يتطلب سدها موارد متزايدة، هذه العوائد تؤثر حتما على أخلاق و صفات أولئك البدو بداية من رئيس العصبية الحاكمة، الذي ينفرد عن قومه بالمجد و يرى نفسه أنه أحق به، و أنّه حصّل عليه لميزة فيه دون غيره. فينأى عن أهل عصبية تدريجيا، محاولا في كل مرة أن يقضي على من يرى فيهم خطرا على منافسته في حكمه من باب أنّ الملك لا يقتضي المشاركة، من خلال اغتيالهم أو الزج بهم في السجون، أو سلبهم أملاكهم، و تجريدهم من مناصبهم، و يستبدلهم بآخرين من غير عصبية، ممن يمكن تسميتهم بمرتزة السياسة، والذين يعبر عنهم ابن خلدون بالموالي والمصطنعين.

و مع التطور الذي تعرفه الدولة و زيادات حاجات صاحب الدولة و أهل بيته و حاشيته و عوائد الترف يلجأ إلى فرض المغارم والضرائب والمكوس من أجل استزادة دخل الدولة والحفاظ على

السلطة من خلال الإنفاق على الجيش مما ينعكس سلبا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية و حتى السياسية. فقد رأينا أثر تلك الضرائب التي سهاها ابن خلدون بالظلم المالي في التعدي على أرزاق الناس، و ما يصيبهم من ضنك يؤدي بهم إلى الهجرة إلى أماكن أخرى بعيدا عن ظلم الحاكم و زبائنته يستطيعون فيها أن يأمنوا على أنفسهم و أرزاقهم، ناهيك عن ما يلحق الاقتصاد في حال نقص الجباية. إنّ حالة الرفه والدعة التي تكون عليها الفئة الحاكمة، أدت بهم إلى فقدان الكثير من الأخلاق التي كان عليها أسلافهم في معاناتهم لتأسيس ملكهم. من هنا تبدأ بوادر الضعف تتسلل إلى الجماعة والعصبية الحاكمة، بداية من تقطع أوصال العصبية نفسها بفعل التنافس والأنانية في تحصيل ثمرات السلطة. و هو الأمر الذي يؤدي إلى الصراع فيما بينهم، و قد يتحالف بعضهم ضد بعض مع العصبية الأخرى التي ترصد و تتحين الفرص للانقضاض على الحكم. و قد أبرزنا تلك الأخلاق التي يكون عليها الأفراد الحاكمين في كل طور من أطوار دولتهم خصوصا في اللحظات و المراحل الأخيرة من عمر الدولة التي تعرف فيه كل أنواع البذخ والإسراف و تفقد الدولة كل أسباب البقاء مهيئة المجال إلى عصبية أخرى تحل محلها من خلال دورة عصبية جديدة و دورة أخلاقية جديدة معتمدة على عوامل البناء السابقة و منها عامل الأخلاق والخلال الحميدة.

و مع ذلك ارتأينا في نهاية هذا البحث أن نخرج بالاستنتاجات التالية:

- ❖ الأخلاق عند ابن خلدون أو كما كان يسميها هو بالخلال الحميدة عارض متغير و متحول، لا يثبت على حال واحدة شأنها شأن كل الظواهر الاجتماعية الأخرى، و هي ليست من الثوابت، بل إنّها من التوابع و الفروع المكملّة للعصبية و التي لا غنى عنها لأي عصبية كانت.
- ❖ الأخلاق ظاهرة اجتماعية من العوارض التي تعرض للعمران البشري، مقارنة بغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى مثل العلوم والصنائع، و بالتالي يمكن دراستها كباقي الظواهر الاجتماعية الأخرى، و هو ما ينطبق تماما مع أنصار المدرسة الاجتماعية بداية من دوركايم و ليفي بربل و غيرهم.
- ❖ كون الأخلاق من الظواهر الاجتماعية والعوارض العمرانية فهي معرضة للفساد، فالذي ليس ثابتا بالنسبة لابن خلدون هو معرض للزوال و الظهور مرة أخرى في جيل آخر من الأجيال.
- ❖ و بما أنّ الأخلاق تحمل الصفة الاجتماعية، فهي حتما تتفاعل تأثيرا و تأثرا بباقي الظواهر الاجتماعية الأخرى، مثل السياسة والاقتصاد، و قد تبين لنا تفاعلها مع ظروف الحياة الطبيعية والمعيشية والتغيرات التي تطرأ عليها بفعل التغيرات التي يعرفها نمط المعاش. إنّ الأخلاق أو الخلال الحميدة التي يركز عليها ابن خلدون، مرتبطة بالظواهر الاجتماعية الأخرى المتغيرة، كما هو الحال بالنسبة لخلق الشجاعة، التي هي حسب صاحب المقدمة مسألة نسبية و متغيرة، بدليل

أن في الجيل الواحد فإنّ الشجاعة تختلف باختلاف الظروف التي يمر بها سكان البدو، فهم إذا نزلوا إلى المدن والأرياف و تأقنوا في النعيم، قلّت شجاعتهم و أصبحوا أحرص الناس على حياتهم و أرزاقهم، بل و يوكلون أمر الحماية إلى أناس آخرين بعدما كانوا يعتمدون على أنفسهم.

❖ الأخلاق عامة و بالأخص الأخلاق البدوية هي عامل مؤسس للسلطة داخل المجتمع البدوي، كما هو الحال بالنسبة لشيخ القبيلة، الذي زيادة على انتمائه لأهل بيت من نسب صريح، يتمتع بالحسب والشرف، واللذان لا يحصلان إلا بالخلال الحميدة كما مرّ معنا، فإنّها أي الأخلاق تزيد من قوة العصبية و تكملها و هو ما يجعل من العصبية ذات قيمة أخلاقية لما لها من دور في ترسيخها بين أبناء المجتمع القبلي من أخلاق التضامن والتعاون والنصرة التي تعطي دفعا قويا للمطالبة بالملك والسلطة و تساهم في الحفاظ و تدعيم ركائزها.

❖ و كما أنّ الأخلاق البدوية هي أخلاق مؤسسة للسلطة السياسية سواء في العمران البدوي أو الحضري. فهي أيضا عامل مدعم و مثبت لها، و في المقدمة عدد غير قليل من المواضع التي يؤكد فيها ابن خلدون على ذلك، فكلما حافظت السلطة الجديدة على تلك الأخلاق بقي ملكها قائما، و العكس كذلك.

❖ القوة (العصبية) شرط أساسي لقيام السلطة والدولة، و الأخلاق شرط فرعي لها، بل إنّ الفرع في بعض الأحيان يكون أقوى لأن العصبية تبقى دائما منقوصة و حكمها غير تام من دون الأخلاق والخلال الحميدة، فما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب حسب القاعدة الفقهية المعروفة.

❖ مرّ معنا أنّ الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك، و لما كانت الأخلاق هي فرع تابع للعصبية، فإنّ الغاية التي تجري إليها الأخلاق لا بد أن تكون ذات الغاية التي تسعى إليها العصبية. تماما كما أوردنا فيما يتعلق بأخلاق المروءة التي اعتبرها الجابري منظومة الأخلاق العربية، و هي تسعى إلى السؤدد في مجتمع القبيلة، مجتمع اللادولة.

❖ إنّ الصفة الضرورية التي يجب أن تلازم الملك هي موقعها الأخلاقي الرفيع. ذلك ما استنتجته عزيز العظمة. حين قرر بأنّ ابن خلدون، تعهد بأن يبرهن على أنّ سمة الملك أو السلطة السياسية (الفعلية أو الظاهرة) هي المنزلة الأخلاقية الرفيعة التي تحتلها العصبية صاحبة الملك. والمجد الناشئ عن عظمة و غلبة بيت مالك يقوم على أساس (هو العصبية) و مكملات لهذا الأساس من نواح أخلاقية، فإنّ غاية العصبية هي أيضا غاية هذه المكملات¹.

❖ إن المتمعن فيما قاله ابن خلدون عن الدولة يمكنه أن يلحظ لأول وهلة أنه لا يخفي مظاهر الظلم الاجتماعي الذي أفرزه الاستبداد السياسي الذي كان السمة الغالبة في الكيانات الاجتماعية

¹ - أنظر: عزيز العظمة، المرجع السابق، 112

التي ظهرت على الأقل في عصر ابن خلدون - فقد كانت هناك نزعة قوية في فرض السلطان دون اعتبار القيم الاجتماعية، وهو ما أدى إلى ظهور خصام و فصام بين الحاكم والمحكوم وظهور الاضطرابات الاجتماعية داخل الكيان الواحد والمجتمع الواحد ، ويعتقد ابن خلدون أن العاصم من كل هذا هو تأسيس الدولة على ضوء منظومة القيم الاجتماعية التي تواضع عليها المجتمع¹.

❖ إن من العوامل التي لا بد منها لتدعيم السلطة أو الدولة في الفكر الخلدوني هو وجود قيم اجتماعية يكون من ثمرتها الاتحاد والتعاون وفي ذلك يقول : " ... وإذا كانت السلطة نابعة من الجماعة فهي في حاجة إلى التعاون وهو الذي يوفر لها القوى ويضمن لها النجاح في مهامها ، وما دام أفراد الحكومة جزءاً لا يتجزأ من المجتمع ومصلحتهم مشتركة ومصيرهم واحد وأفراد المجتمع هم الذين اختاروهم ووضعوهم في المنصب الخطير فلا ينبغي أن يأخذهم الغرور ويتمسكوا بروح الاستعلاء والامتنياز عن أولئك الأفراد الذين ولوهم الحكم وهم السبب في وجودهم على رأس الأمة وهم دعامة قوتهم وبقائهم في الحكم ، وعلى هذا فإن التعاون والاتحاد والتشاور والانسجام بين السلطة الحاكمة وبين المجتمع أمور ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها وبالخصوص إذا كانت السلطة واعية شاعرة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها ومدركة للواجب المنوط بها من قبل أفراد المجتمع وتعلم أن مهمتها هي السهر على مصالح الأمة فإنها لا تفتأ أن تبذل قصارى جهدها في خدمتها ورقبها والتعاون مع أفرادها والمحافظة على نظامها ووحدتها"²

❖ إن الدولة التي تنشأ من مشكاة القيم الاجتماعية التي من ثمارها الاتحاد والتعاون تزيدها هذه القيم قوة ومنعة ، " والدولة التي تكون على هذا الشكل فإنها تزداد قوة ومنعة من الضعف والانهيار لأن قيامها بواجبها يجعل أفراد الشعب يطمئنون على مصيرهم ويمنحونها ثقتهم ويتعاونون معها في السراء والضراء"³

❖ غياب القيم الاجتماعية يؤدي بالضرورة إلى انهيار الحكم أو الدولة، ومن ثم فإن الظلم الذي يظهر في جماعة بشرية ويضرب بجيرانه فيها، يزيد من احتمالات انهيار الكيان السياسي، والتاريخ الإنساني يؤكد هذه الحقيقة، فالسلطة التي لا تمارس العدل الاجتماعي بين أفرادها ورعاياها سلطة آيلة بالانهيار، وتتحول بالضرورة من دولة سلطانية إلى جماعة إقطاعية جائرة غاصبة لا

¹ - محمد بوالروايح، دور القيم الاجتماعية في تكوين الدولة عند ابن خلدون، مجلة علوم إنسانية WWW.ULUM.NL ،

السنة السادسة، العدد 38، صيف 2008

² - إدريس خضير، المرجع السابق، ص 146-147

³ - نفس المرجع، ص 147

تفكر إلا بالمنطق النفعي الشخصي، ووجود هذه السلوكات السلطوية المتسلطة -إن صح التعبير- لا يجعل السلطة خادمة للمجتمع والأمة¹.

و في نهاية هذا البحث يتضح لنا مدى العلاقة التي تربط بين الأخلاق والسياسة من خلال التصور الخلدوني، إنها علاقة بين الأخلاق كظاهرة اجتماعية تؤثر و تتأثر بظاهرة اجتماعية أخرى هي العصبية التي اعتبرها ابن خلدون القوة الاجتماعية والسياسية في نفس الوقت، إنها علاقة تفاعل و تكامل، بعيدا عن التنظير الفلسفي و"المليح" أن يكون عليه أي حاكم، إنها بكل بساطة نظرة سوسيولوجية محضة لتفسير أثر الأخلاق في الحياة السياسية، و أخلاق أولئك الذين ترشحوا لقيادة و حكم أقوامهم و كيف كانوا عليه في الواقع الاجتماعي. و بالتالي فإنّ التصور و التفسير الخلدوني لعلاقة الأخلاق بالسياسة هو تفسير واقعي يستقي ملاحظاته من الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه، لذا يمكن القول أنّ العلاقة بين الأخلاق والسياسة هي علاقة فرضتها ظروف الحياة الاجتماعية بداية من مجتمع القبيلة والبدو و انتقلا إلى نمط آخر من العيش في المجتمع الحضري و ما يوفره من سبل الرفه و الترف. فقوة العصبية في قوة فروعها و متماتها و من بين تلك الفروع الأخلاق والخلال الحميدة في التعبير الخلدوني، كم أنّ قوة الفروع تأتي من قوة الجذع و الأصل في علاقة تفاعلية في أثر كل منهما على الآخر.

تلك هي بصفة عامة ما توصلنا إليه و نحن نحاول أن نتعرف على معالم العلاقة التي تربط الأخلاق بالسياسة كما تصورها ابن خلدون، و بلا شك فإنّنا نعتقد بأنّنا كشفنا عن بعض المعالم و ليس كلها، و قد يكون بحثنا هذا بداية لمحاولات أخرى قد ترى أنّ هناك أبعادا أخرى جديرة بالبحث لم نكتشفها أو أنّنا لم ننتبه إليها و هذا أمر طبيعي، و خصوصا و نحن في أول الطريق لبناء الشخصية الباحثة، فليس ثمة بحث كامل، و هو شأن كل البحوث الاجتماعية، التي تبقى النتائج التي تتوصل إليها تنسم بالنسبية.

¹ - محمد بوالروايح، المرجع نفسه